



أبو عبد الله السوري

في مرحلة عدم تكافؤ القوة العسكرية تلجأ التنظيمات المسلحة إلى ما يسمى حرب العصابات، التي تعتمد على الكمين المحكم والغارة الخاطفة والانسحاب السريع تحرك في الأرض دونما الاحتفاظ بها لتفرض قواعد جديدة في الحرب، تحقق النكبة في العدو وتخلق ظروف تتيح حالة من التوازن الآني والاستمرار في المواجهة.

هذا النوع من الحروب ممكن أن ينتقل إلى ساحة العمل السياسي وال الحرب الفكرية التي لا تسمع فيها دوي القنابل وصليل السيف الحرب الناعمة التي تستهدف الثقة والهوية.

الغزو الفكري من أخطر أنواع الحروب فإن كانت الحروب العسكرية تستهدف استئصال الشافة فإن الحروب الفكرية تستهدف استئصال الهوية والانتماء وتشويه المفاهيم وتجيئها وتدجينها وهي كذلك تخضع لموازين القوة والضعف لذلك تحتاج منا لإيجاد استراتيجية ناجحة في مواجهتها.

إن الدخول في حرب معلنة مع المصطلحات السياسية الوافية سيكشف الكثير من أوراق المسلمين في عصر الاستضعف وسيهدى كثير من الأوقات والجهود في تحطيم مسميات وإثبات أخرى.

لذلك كان علينا أن نتعامل مع هذه المصطلحات من خلال إفراغها من مضمونها المتناقض مع ثقافتنا، والعمل على تعبيتها بمضامين من ثقافتنا أو الاختباء وراءها للوصول إلى المبتغي، هكذا تكون الاستراتيجية الناجحة لأجل سرعة الدخول في حيز التنفيذ للمشروع ولا نراوح في معوقات الفكر والمصطلحات المحتملة.

نمثل هنا ولا نحصر في قضية الخطاب الوطني الذي تباه كثير من الجماعات الإسلامية وتحاربه بحجج عالمية الإسلام والمسلمون أخوة، فلا هم حافظوا على الوطن والأرض ولا حفظوا عالمية الإسلام في حراكهم.

لا يمكن أن تتصور تعارضًا بين الإسلام كهوية وبين الوطن كظرف مكاني يجمع الأمة وينفذ عليه مشروعها الحضاري. إن غياب الخطاب الوطني ببعده الإسلامي من شأنه أن يجعل الأقليات كلها تنقلب كقوة مضافة للأعداء في الوقت الذي تحتاج فيه إلى تحديد أكبر عدد من الخصوم المحتملين وكسب أكبر عدد من الحلفاء. إن إيلاء الاهتمام للبعد الوطني ليس قضية تعلق بسايكس بيكيو كما يحب البعض أن يصور الأمر وإنما هي مسألة شرعية، فقد شرع جهاد الدفع لأجلها.

وتجريد المجاهد من حب الوطن يقتل الغيرة في نفسه على عرضه ووطنه و يجعله وقدًا للمشاريع الحزبية، ولاؤه المطلق للإيديولوجيا والتنظيم العابر للحدود يسهل تنقله من ساحة إلى ساحة جاريا وراء التنظيم وكأنه هو الغاية والإسلام بعينه. حتى الفقهاء لم يغب عنهم بعد القطري في الجهاد فجعلوا من جهاد الدفع واجباً على أهل البلد الذين يقع عليهم الصيال ابتداءً.

إن قطع العلاقة بين المجاهد ووطنه وضعف تشبثه بالأرض وإلحاده بالتنظيمات والأحزاب يجعله عرضة للاستعمال والاستغلال والزج به في كل أرض قد لا تكون المصلحة في إشعالها ولكنها ضرورة لحفظ التنظيم. ولا يعني ذلك بالضرورة أن لا ينتصر المسلمون فيما بينهم. ولكنه من باب البناء على الموجود والميسور إلى أن يتيسر المفقود والمعسور.

لذلك لا بد من الالتفاف على كثير من المصطلحات الحياتية كالوطنية والحرية والعدالة الاجتماعية والدعوات القومية لتأطيرها ضمن الحدود الشرعية، وهي التي عناها العلماء بقولهم لا مشاحة في الاصطلاح والعبرة بالمعانى لا بالألفاظ والمبانى، ولا يجب أن نجد غضاضة في رفعها كشعارات إنسانية وربما نضطر أن نلتقي على المصطلحات المتخاصمة معنا ونعمل على تطويقها وتفریغها وتفكيكها إلى ما هو مقبول منها وما هو مرفوض لحسن مواجهتها بأيسر السبيل. وأحسب أن الاخوة في ليبيا قد أخذوا بهذا الطرح مبكراً فهم يستخدمون نفس العبارات المتداولة في الخطاب дبلوماسي (مدنية الدولة، دولة المؤسسات، وطنية، محاربة الإرهاب، حرية، المشاركة السياسية، حقوق الإنسان، وغيرها) لكن لا بمفهوم الغرب وإنما بمفهومنا الإسلامي.

وبنفس الوقت هم مستمرون في وضع أسس النظام الإسلامي في شتى النواحي القانونية وهذا ما جعل لهم ثقلًا ومرونة في تخطي أزمات الداخل ومؤامرات الجوار وخبط الخارج بأقل الخسائر وأوفر المكاسب

ولا يجب أن نقف منها موقفاً نفسياً لأن الماسون تاجروا بها فهم ألد الأعداء للوطن والإنسان، والأنظمة العلمانية استعملتها في إذلال الشعوب وتواروها مستترین بها وكم رفعوا من شعارات الإخاء الإنساني والحرية والعدالة الاجتماعية ومارسوا تحتها كل أنواع الظلم والتمييز العنصري والقهر والاستبداد.

قد يكون للقضية أبعادها النفسية لكن حرفيّة الخطاب يجب أن تتجاوز هذه القضية دون إسقاط الحقوق في خطاب العالم يجب أن نوصل رسالتنا على أننا نخوض حرب ظالم ومظلوم وساعة نخاطب العالم أننا نخوض حرباً عقدية سخسر الكثير في عصر الضعف.

صحيح أن أكثر من استخدم هذه المصطلحات هم القتلة وال مجرمون ليس فقط بالمستوى المحلي بل المستوى العالمي وحتى من حذر من فتنة الحرب الطائفية أو العقدية منهم أراد استخدامها لتزوير حقيقة الحرب أنها اختلاف عقدي أو منهجي فيلقي ضبابية على المشهد وقد نجح هذا الخطاب في جر المسلمين بعيداً عن حقوقهم خوفاً من الاتهام بالفتنة والحقيقة هو صراع بين ظالم مفترض للحق ومظلوم.

التشبث بالهوية ضروري لمخاطبة الأتباع والأمة ولكنها مشكلة في مخاطبة العالم المخالف وأنت تبحث عن نصير لحفظ وجودك في حال الاستضعاف.

نحتاج إلى عمق في النظر والتمييز بين المصطلحات السياسية التي يتواضع عليها مجموعة من البشر لتدخل على معنى محدد ثم تروج في عالم الخطاب السياسي العالمي وبين المصطلحات الشرعية التي وضعها الشارع والتي لا يجوز الخروج عنها بحال، فاللتورية في الحروب السياسية والإختباء وراء الكلمات الغائمة مطلوبة كما هو الحال في الحروب العسكرية وفي الحروب الفكرية وهي الأخطر ([ولن في المعارض لمندوحة عن الكذب](#)) رواه البخاري في الأدب المفرد.

وهذا يشبه التفرق بين الحقيقة الشرعية وضعها المشرع والحقيقة اللغوية التي تواضع عليها أهل اللغة والحقيقة العرفية التي تعارف عليها الناس هنا نتكلم عن المصطلحات الحياتية العرفية منها واللغوية التي تقبل العلمنة والأسلمة ولا نأتي على الحقائق الشرعية للمصطلحات الوقفية.

لماذا لا نفعل كما يفعل الخصم حينما يأتي لمصطلحاتنا الإسلامية ويفرغها من مضمونها ثم يعمل على تعبيتها بمضامين من صميم الهوية الغربية؟

هذه الحرب أحياناً تنفذ بأيدي أبنائنا وتمارس علينا ونكون نحن ضحيتها في تفكيك مصطلحاتنا الصلبة ليتم إفراغها من مضمونها فتصبح كالغذاء الهرموني الذي يعطيك شكل الغذاء منزوعة منه القيمة الغذائية فتندفعو أقنعة مزيفة على وجوه قبيحة.

ثم نبذل الجهد الطويل من أجل إعادة الصورة والحقيقة المشرقة لما شوّهه الغلاة من معاني سامية تمّس نخاع هويتنا. يقوم الغلاة بنفس عمل العلمانية المتأسلمة وهو إفراغ المفاهيم الإسلامية من مضمونها ثم إعادة تعبيتها هذه المفاهيم بمضامين القتل والسلب والسب والسرقة ثم تقدم إلينا على أنها من صلب ديننا وهويتنا، وهذا ما يحصل اليوم لمفهوم الدولة الإسلامية والخلافة الإسلامية والجهاد والشريعة فقد تعرضت لأقصى درجات التشويه على أيادي الغلاة المارقين حتى حمل البعض أن يعرض عن استعمال هذه المصطلحات ويستعيض عنها لما يحضر في ذاكرته من عمل المارقة في تشويه هذه المسميات الصلبة في مشروعنا الحضاري.

الخلاصة:

إن لم ننهض لهذا الأمر ونمارس حرب العصابات الفكرية على المصطلحات الحياتية والالتفاف على المصطلحات المناوئة فستتروج هذه المصطلحات إلى شعوبنا تحت تأثير الضخ الإعلامي وبنفس المضامين والمفاهيم الغربية لهذه المصطلحات، إما من عجزنا عن فرض مصطلحاتنا شكلاً ومضموناً على سوق السياسة والثقافة العالمي، فعلى قدر ما نحسن استعمال التمويه في الحرب نستطيع أن نشتت نيران العدو ونضلله أهدافه ونشاغله للالتفاف عليه وتحقيق الهدف الاستراتيجي.